



معلومات البحث

تاريخ الاستلام: 2026-05-07

تاريخ القبول: 2026-09-22

Printed ISSN: 2352-989X

Online ISSN: 2602-6856

الزخارف المعمارية في مئذنة مسجد المنصورة بتلمسان: دراسة وصفية تحليلية

*Architectural Decorations on the Minaret of the Mansourah Mosque in Tlemcen: A Descriptive and Analytical Study*جرارفاوي محمد¹، يحياوي العمري²¹مختبر التراث الأثري وتأمينه، جامعة أبو بكر بلقايد - تلمسان (الجزائر)،mohamed.djerfaoui@univ-tlemcen.dz²قسم علم الآثار، جامعة أبو بكر بلقايد - تلمسان (الجزائر)،omaryahiaoui90@gmail.com

الملخص: تهدف هذه الدراسة إلى توثيق وتحليل الزخارف المعمارية في مئذنة مسجد المنصورة بتلمسان، والكشف عن خصائصها الفنية والجمالية وعلاقتها بالتكوين المعماري. حيث اعتمدت الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي، مع المقارنة لتحديد بعض المرجعيات الفنية للزخارف. وقد أظهرت النتائج تنوع الزخارف وتكاملها مع عمارة المئذنة، إلى جانب اعتماد واضح للتكرار والتناظر والإيقاع في تنظيمها. حيث تعكس هذه الزخارف خصائص فنية مرتبطة بالعمارة المرينية بتلمسان.

الكلمات المفتاحية: الزخارف المعمارية؛ مئذنة مسجد المنصورة؛ تلمسان؛ العمارة المرينية، الفن الإسلامي.

ABSTRACT

This study aims to document and analyze the architectural decorations of the minaret of the Mansourah Mosque in Tlemcen, with a view to identifying its artistic and aesthetic characteristics and its relationship to the architectural composition. The study adopts a descriptive-analytical approach, complemented by comparative analysis to identify some of the artistic references underlying the decorations.

The results reveal a diversity of decorative elements and their integration with the architecture of the minaret, along with a clear reliance on repetition, symmetry, and rhythm in their arrangement. These decorations features reflect artistic characteristics associated with Marinid architecture in Tlemcen.

Keywords: Architectural decorations; Minaret of the Mansourah Mosque; Tlemcen; Marinid architecture; Islamic art.

1. مقدمة:

شهدت بلاد المغرب الإسلامي خلال القرنين السابع والثامن الهجريين (الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين) تحولات سياسية كبرى، تمثلت في انهيار دولة الموحدين وظهور دول إقليمية متنافسة، من أبرزها الدولة المرينية في المغرب الأقصى، والدولة الزيانية في المغرب الأوسط، والدولة الحفصية في إفريقية. وقد انعكست هذه التحولات على المشهد العمراني والفني بشكل لافت، إذ تنافست هذه الدول في تشييد المدن والمساجد والمدارس والقصور، واستقدمت الصنّاع والفنانين من الأندلس ومن مختلف الحواضر المغربية. وفي هذا السياق، يأتي بناء مدينة المنصورة بالقرب من تلمسان، وما تضمّه من صومعة عظيمة، ليجسد ذروة هذا التنافس الحضاري. تُعتبر صومعة المنصورة من الآثار القليلة المتبقية من المدينة التي أسّسها السلطان المريني أبو يعقوب يوسف الناصر سنة 698هـ/1299م، أثناء حصاره الطويل لمدينة تلمسان، عاصمة بني زيان. وقد حرص المرينيون على أن تكون هذه المدينة، رغم طابعها العسكري المؤقت، ذات طابع عمراني فخيم يعبر عن قوة الدولة الجديدة وعن شرعيتها الدينية والسياسية. ولم تكن المئذنة مجرد منارة للأذان، بل كانت عنصراً رمزياً بارزاً في المشهد البصري للمدينة، ومنارة تُرى من مسافات بعيدة.

ومن هنا تبرز الحاجة إلى دراسة متخصصة تتناول زخارف هذه المئذنة بالوصف والتحليل، وتضعها في سياقها الفني والحضاري المقارن. حيث تتمحور إشكالية هذه الدراسة حول: ما هي الخصائص الفنية والتقنية لزخارف مئذنة مسجد المنصورة؟ وما مدى تأثيرها بالتيارات الفنية الأندلسية والمغربية؟ وما مكانتها في سياق العمارة المرينية بالمغرب الأوسط؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات، اعتمدت الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي لتفكيك العناصر الزخرفية وتصنيفها، والمنهج المقارن لمقارنة زخارف المئذنة بعناصر مماثلة في المغرب والأندلس، إضافة إلى المنهج التاريخي لتأطير البناء في سياقه الزمني والسياسي. وتستند المادة العلمية إلى المعاينة الميدانية للمئذنة والتوثيقية، فضلاً عن المصادر التاريخية مثل كتابات ابن خلدون، والدراسات الأثرية الفرنسية الكلاسيكية التي أُرخت لآثار تلمسان والمنصورة في مطلع القرن العشرين.

2. الإطار التاريخي والمعماري لمئذنة مسجد المنصورة:

1.2 الإطار التاريخي لمدينة المنصورة:

بُنيت مدينة المنصورة في خضم الصراع المريني الزياني على النفوذ في المغرب الأوسط. فبعد سقوط الدولة الموحدية، بسط بنو مرين* سيطرتهم على المغرب الأقصى، واتخذوا من فاس عاصمة لهم، بينما استقر بنو زيان في تلمسان وأسسوا دولة مستقلة. وقد سعى المرينيون، بدافع التوسّع وتأمين الحدود الشرقية، إلى ضم تلمسان وما حولها، فشنوا عليها عدة حملات عسكرية. وكانت أبرز هذه الحملات تلك التي قادها السلطان أبو يعقوب يوسف الناصر، الذي حاصر تلمسان حصاراً طويلاً دام قرابة ثماني سنوات، من سنة 698هـ إلى 706هـ (1299-1307م) (ابن خلدون، 2000، الصفحات 210-215).

وقد أدرك المرينيون أن الاستيلاء على تلمسان لن يكون سهلاً بسبب تحصيناتها ومناعة موقعها، فعمدوا إلى بناء مدينة كاملة غرب تلمسان أطلقوا عليها اسم "المنصورة"، لتكون قاعدة عسكرية وإدارية لإدارة الحصار، وليثبتوا وجودهم في المنطقة بشكل دائم. وذكر ابن خلدون: "أن السلطان أبا يعقوب بنى بإزاء تلمسان مدينة المنصورة، وأدار عليها سوراً، وشيّد بها قصراً وجامعاً، وأدار بها

* بنو مرين: حسب ابن خلدون المرينيين كانوا كعبد الواد ملوك تلمسان من الطبقة الثانية لجبل زناتة وهم حسب تقسيمه من أعلى قبائل زناتة حسباً وأشرفهم نسباً.

الزخارف المعمارية في مئذنة مسجد المنصورة بتلمسان: دراسة وصفية تحليلية

جرارفاوي محمد، يحيياوي العمري

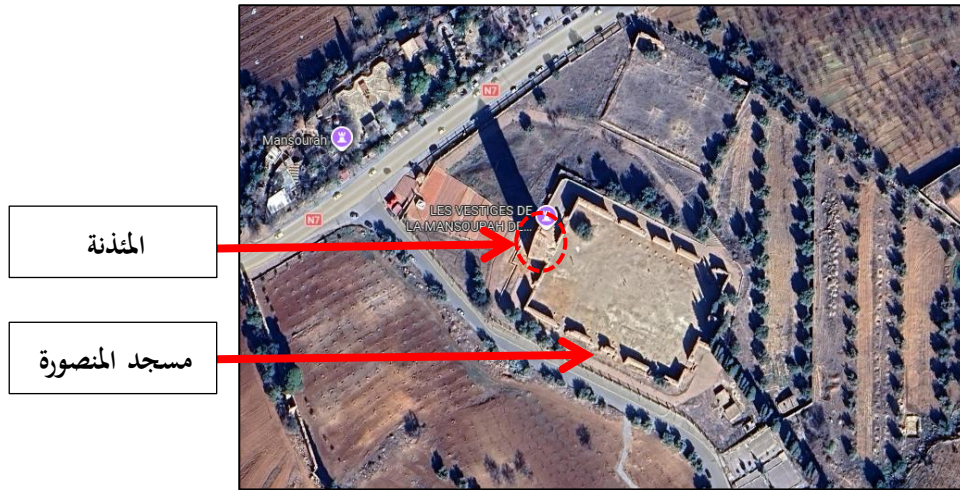
الأسواق والحمامات" (ابن خلدون، 2000، صفحة 218). وقد شُيّدت المدينة بسرعة ملحوظة، لكنها بُنيت بعناية معمارية فائقة، إذ أراد المرينيون أن تكون المنصورة عاصمة مضاهية لتلمسان، بل وربما عاصمة بديلة لها في حال سقوطها.

وقد أسهم في بناء المنصورة وتزيينها صنّاع وفنانون من مختلف الحواضر التي خضعت للنفوذ المريني، وخاصة من فاس ومكناس ومراكش، ومن المدن الأندلسية التي كانت لا تزال تحت الحكم الإسلامي مثل غرناطة. ويُرجّح أن تكون أفواج من البنّائين والنقّاشين والخزّافين قد انتقلت إلى المنصورة لهذا الغرض، وهو ما يفسّر الطابع الأندلسي الواضح في كثير من زخارفها. وبعد وفاة السلطان أبي يعقوب سنة 706هـ ورفع الحصار، هُجرت المدينة تدريجياً، لكن بعض مبانيها ظلت قائمة، ومن أهمها مئذنة المسجد التي بقيت شاهقة رغم تعرضها للعوامل الطبيعية وتقلبات الزمن (Marçais, 1954, pp. 284-286).

2.2 الموقع الجغرافي وتاريخ بناء المئذنة:

تقع مئذنة المنصورة في الجهة الشمالية للمسجد، والذي لم يبق منه إلا الأسوار والمئذنة. بُني هذا الأخير في موقع استراتيجي بالنسبة لمدينة المنصورة إذ يقع على مستوى هضبة صلبة من الصخور الكلسية ولا يبعد عن الباب الغربي لسور المدينة إلا ببضعة أمتار (لعرج، 2006، صفحة 121).

الصورة 1: موقع المئذنة بالنسبة للمسجد.



المصدر: Google Maps

شيدت مئذنة مسجد المنصورة من قبل السلطان المريني أبو يعقوب بن عبد الحق، ويرجع تاريخ تأسيسه إلى سنة 702هـ/1302م، حسب ما نصّت عليه الكتابة التأسيسية التي تعلو مدخل المئذنة والتي جاء فيها: "الحمد رب العالمين والعاقبة للمتقين أمر ببناء هذا الجامع المبارك أمير المسلمين المجاهد في سبيل العالمين المرحوم أبو يعقوب بن عبد الحق رحمه الله" (بن قرية، 1986، صفحة 85). وقد أشار عبد الرحمان ابن خلدون إلى تأسيس الجامع وبناء مئذنته في قوله: "... ثم أمر بإدارة السور سياجاً على ذلك سنة 702هـ/1302م وصيرها مصرّاً... وابتنى بها مسجداً جامعاً وشيد له مئذنة رفيعة فكان من أحفل مساجد الأمصار وأعظمها..." (ابن خلدون، 2000، صفحة 293). ويعدّ جامع المنصورة من روائع الفن المعماري الإسلامي لما يتميز به من ضخامة وفخامة والذي لا تزال أجزاء من صومعته قائمة حتى اليوم تحتفظ بأصالتها المعمارية وقيمتها الفنية، ومن خلال ذكر كلمة المرحوم في الكتابة التأسيسية دليل على أن الكتابة نقشّت بعد وفاة الأمير أبو يعقوب، تعرضت هذه المئذنة للتخريب من طرف بنو

الزخارف المعمارية في مئذنة مسجد المنصورة بتمسان: دراسة وصفية تحليلية

جرارفاوي محمد، يحيياوي العمري

زيان بعد وفاة الأمير أبو يعقوب واشتد الصراع بينهم وبين بنو مرين، دام الحصار مدة سنتين من 735هـ حتى 737هـ، وبعد الحصار استولى السلطان المريني على مدينة المنصورة مجددا فقام بإعادة بنائها وتعميرها وترميم ما خربه بنو زيان (لعرج، 2006، صفحة 122)، وفي هذا الصدد نجد ابن خلدون يتحدث عن مدينة المنصورة في عهد أبي الحسن المريني في قوله: "... واختط السلطان بغربي تلمسان البلد الجديد لسكانه ونزل عساكره وسماه المنصورية..." (ابن خلدون، 2000، صفحة 340).

3.2 الوصف المعماري للمئذنة:

تتفرد مئذنة المنصورة عن باقي المآذن في الجزائر باعتبارها أعلى مئذنة، وتأتي في المرتبة الثالثة بعد مئذنتي الكتبية والحسان في المغرب الإسلامي، كما أنها تضم واجهتها المدخل الرئيسي للمسجد، وهو ما يميزها عن باقي مآذن مدينة تلمسان والجزائر عامة. تتكون من جزئين، البرج الرئيسي أو ما يعرف بالبدن، والجوسق الذي اندثر، وقد بُنيت هذه المئذنة بالحجارة والآجر، يبلغ ارتفاعها حوالي 38 متر (شرقي، 2013، صفحة 113)، وهي مربعة الشكل، وقد كان لها وظيفتين الأولى عسكرية للمراقبة والثانية دينية للأذان (لعرج، 2006، صفحة 145).

تقع هذه المئذنة في الجهة الشمالية للمسجد الذي لم يتبق منه غير الأسوار، مقابلة للمحراب، يتخللها المدخل الرئيسي، الذي عرضه 2.50م وارتفاعه 3.36م، هذا الأخير يؤدي مباشرة إلى الصحن عبر رواق مستطيل طوله حوالي 10 أمتار. للمئذنة أربعة واجهات، الواجهة الشمالية وهي الواجهة الرئيسية (التي تضم المدخل)، بحث لا تزال تحافظ على تصميمها المعماري والزخرفي، أما الواجهة الجنوبية فقد انهارت كليا، وبقي بعض الأجزاء من الواجهتين الشرقية والغربية.

الصورة 2: مئذنة مسجد المنصورة.

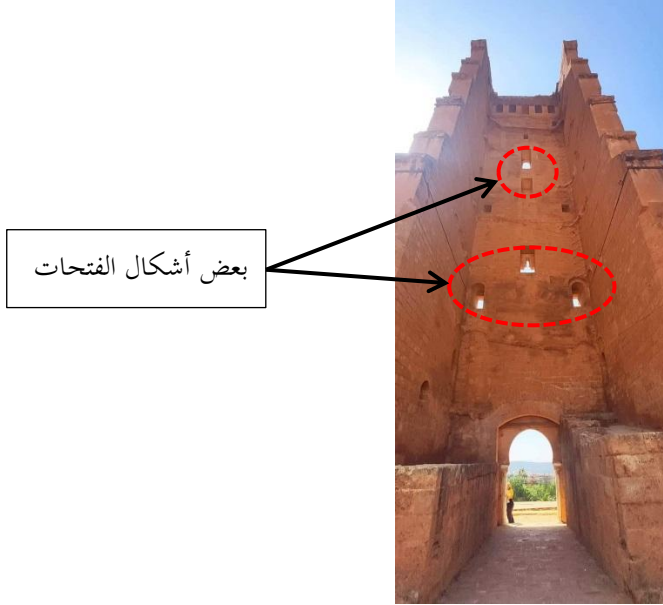
المخطط 1: مخطط يوضح موقع مسجد المنصورة.



المصدر: تصوير الباحثين.

جاء تخطيطها الداخلي بنفس تخطيط المآذن الموحدية، حيث تتكون من نواة مركزية محوفة، طول ضلعها 2.71م؛ وتتكون من سبعة غرف متتالية تتخللها فتحات متعددة بعضها على شكل نوافذ مختلفة للتهوية والإضاءة والبعض الآخر على شكل مزاغل.

الصورة 3: مئذنة مسجد المنصورة من الداخل.



المصدر: تصوير الباحثين.

وقد تحدث ابن مرزوق عن كيفية الصعود إلى هذه المئذنة، حيث ذكر أنها تتم عن طريق ممر دائري يسير فيه شخص أو اثنين فوق دابتهما، قائلاً: "... ولا شك أن صومعته لا تلحق بها صومعة في مشارق الأرض ومغاربها صعدتها غير مرة مع الأمير أي على الناصر، وهو رحمة الله علي فرسه وأنا على بغلتي من أسفلها إلى أعلاها... وكانت على الباب الجوي منه ولها ممران، يطلع فيهما إلى أعلاها..." (لعرج، 2006، صفحة 147).

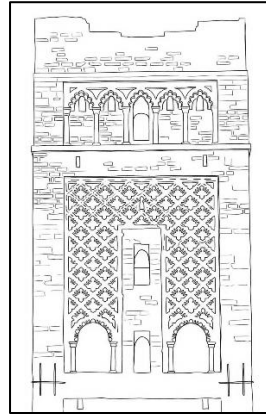
3. دراسة وصفية للزخارف

تتنوع زخارف مئذنة مسجد المنصورة بين عناصر هندسية ونباتية وكتابية، نُفذت بمواد وتقنيات مختلفة. وستقدم في هذا الجزء وصفاً دقيقاً لهذه العناصر، مع الإشارة إلى أماكن وجودها وخصائصها التقنية.

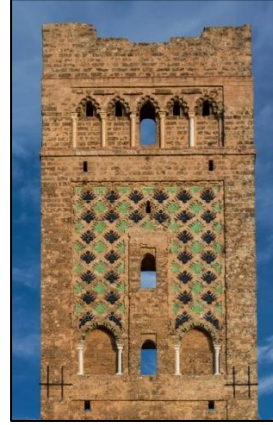
1.3 الزخرفة الهندسية:

تُشكل الزخارف الهندسية العنصر الأبرز والأكثر انتشاراً في مئذنة المنصورة، وقد اعتمد الفنانون على وحدات هندسية بسيطة، مثل المربع والمعين والمثلث، لبناء تشكيلات معقدة ومتداخلة تملأ المساحات الواسعة للواجهات، ومن أبرز هذه التشكيلات شبكات المعينات، التي تتقاطع لتكوّن نجومًا ثمانية الأضلاع، وهي سمة مميزة للفن الموحد الذي انتشر في المغرب والأندلس خلال القرنين السادس والسابع الهجريين. وتظهر هذه النجوم الثمانية في مواضع متعددة من المئذنة، خاصة في الشريط الواقع أسفل الشرفة العلوية، حيث تتكرر بشكل إيقاعي يخلق إحساساً بالحركة والاستمرارية.

الصورة 4: شبكة من المعينات بالواجهة الرئيسية. الشكل 1: التفرغ الزخرفي لشبكة المعينات.



المصدر: إعداد الباحثين.



المصدر: تصوير الباحثين.

وقد نُفذت هذه الزخارف الهندسية أساساً عن طريق تقنية الآجر البارز والغائر، حيث يتم إبراز بعض الآجر عن مستوى الجدار بينما تُترك أخرى غائرة، فينتج عن ذلك تلاعب بالظل والنور يبرز التصميم الهندسي بوضوح. وتُعد هذه التقنية من أقدم التقنيات الزخرفية في العمارة الإسلامية المغربية، وقد استُخدمت في مآذن موحدية مثل صومعة الكتبية بمراكش وصومعة حسان بالرباط، لكنها بلغت في المنصورة درجة عالية من الإتقان. كما استُخدم الجص المنحوت في ملء الفراغات بين الآجر وفي تنفيذ زخارف هندسية دقيقة يصعب تنفيذها بالآجر وحده، مثل الدوائر المتشابكة والخطوط المتعرجة.

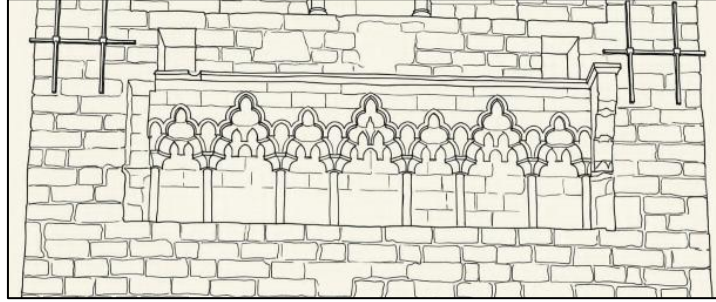
ومن السمات اللافتة في هذه الزخارف الهندسية استخدام المقرنصات الصغيرة في بعض المواضع، لا سيما في الأجزاء الانتقالية بين البدن المربع والجزء العلوي. والمقرنصات عنصر زخرفي ومعماري نشأ في المشرق الإسلامي وانتقل إلى المغرب والأندلس، حيث استُخدم لتغطية الانتقالات بين الأشكال المختلفة وتزيين الأفاريز والشرفات. وفي هذه المئذنة، تظهر المقرنصات بأحجام صغيرة نسبياً، منفذة بالجص، متدرجة توحي بخلية النحل، وهي تقنية أندلسية (Golvin, 1970, p. 310).

الصورة 5: المقرنصات التي تزين الواجهة الرئيسية.



المصدر: تصوير الباحثين.

الشكل 2: التفريغ الزخرفي للمقرنصات التي تزين الواجهة الرئيسية.



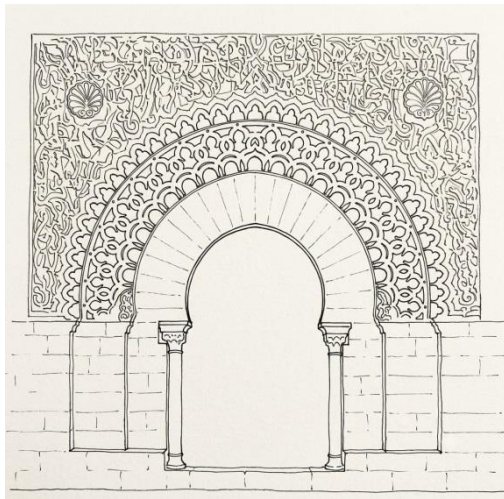
المصدر: إعداد الباحثين.

2.3 الزخارف النباتية:

تحتل الزخارف النباتية مكانة مهمة في مئذنة المنصورة، وإن كانت أقل انتشاراً من الزخارف الهندسية. وتتركز هذه الزخارف في الأشرطة الجصية التي توطر النوافذ والعقود والمدخل الرئيسي، وفي الأفاريز الأفقية التي تفصل بين مستويات المئذنة. وقد نُفذت هذه الزخارف بأسلوب الحفر العميق على الجص، مما يعطي تأثيراً ظلياً قوياً ويبرز التفاصيل الدقيقة.

وتتكوّن الزخارف النباتية في هذه المئذنة من فروع ملتفة وأوراق عنب ونخيل، والتي تُعرف باسم "الأرابيسك". وتتميز هذه الفروع بالاستمرارية والتموج، إذ تنبثق من ساق رئيسية وتتفرع إلى سوق ثانوية تحمل أوراقاً وعناقيد، في تكوين إيقاعي متكرر. ويلاحظ أن أوراق العنب ذات طابع خماسي الفصوص، قريبة من الأوراق التي ظهرت في قصور غرناطة، خاصة في قصر الحمراء الذي بُني في الفترة نفسها تقريباً. وهذا التشابه ليس مصادفة، بل يعكس وحدة الذوق الفني السائد في بلاطات المغرب والأندلس، وتنقل الصنّاع بين الحواضر المختلفة.

الصورة 6: العقد الذي يعلو المدخل الرئيسي للمئذنة. الشكل 3: التفريغ الزخرفي للعقد الذي يحيط بالمدخل الرئيسي.



المصدر: إعداد الباحثين.



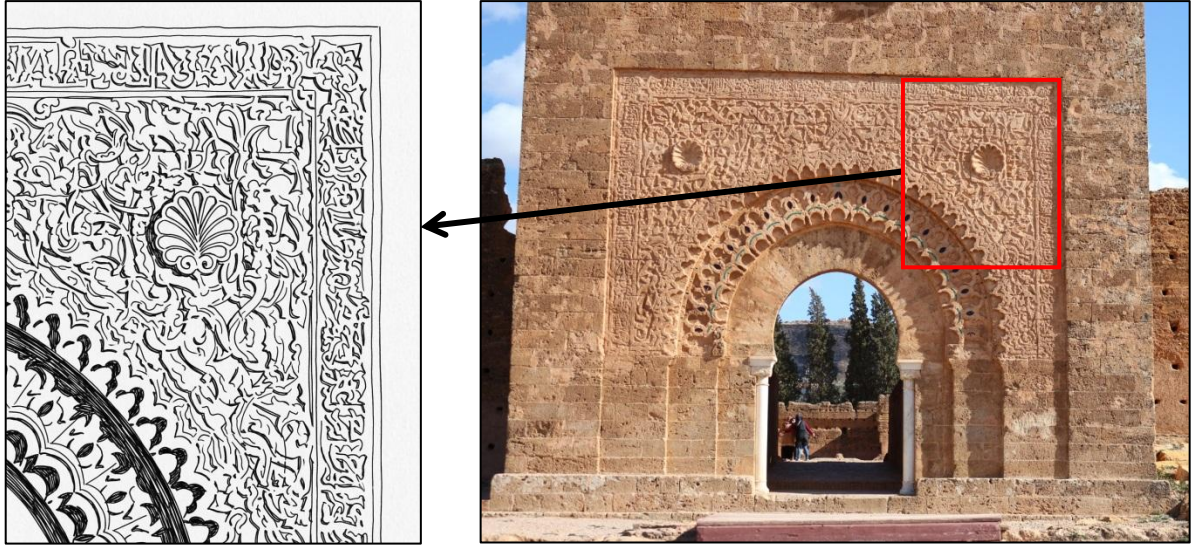
المصدر: تصوير الباحثين.

الزخارف المعمارية في مئذنة مسجد المنصورة بتمسان: دراسة وصفية تحليلية

جرارفاوي محمد، يحيياوي العمري

ومن العناصر النباتية الأخرى، نجد أشكال المراوح النخيلية، التي استُخدمت كعنصر ملء في الزوايا والفراغات، وأوراق الأفتنة المنمقة التي تحولت إلى أشكال شبه هندسية. وقد عالج الفنانون هذه العناصر بأسلوب تجريدي، إذ ابتعدوا عن المحاكاة الحرفية للطبيعة واتجهوا إلى التبسيط والتسطيح، بما يتوافق مع الروح الإسلامية التي تميل إلى التجريد. وتُعد هذه الزخارف النباتية من أبرز المؤشرات على التأثير الأندلسي الغرناطي في مئذنة المنصورة، إذ تكاد تكون نسخة مطابقة لما نجده في أروقة الحمراء ورياضها.

الشكل 4: يوضح التفريغ الزخرفي للمراوح النخيلية ومحارة بالعقد الذي يعلو المدخل الرئيسي.



المصدر: إعداد الباحثين.

3.3 الزخارف الكتابية:

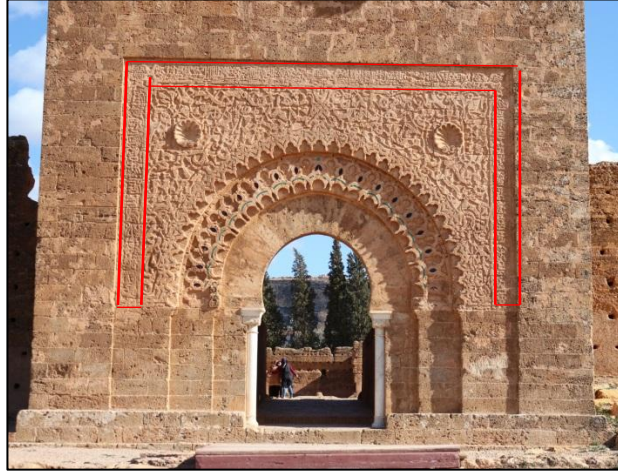
تُعد الكتابة من أبرز عناصر الزخرفة الإسلامية وأكثرها دلالة، إذ تجمع بين الوظيفة الجمالية والوظيفة الدينية والتوثيقية. وفي صومعة المنصورة، توجد بقايا كتابات منفذة بالخط الكوفي والخط الثلث على أشرطة جصية حول باب الصومعة وفي الجزء العلوي منها. ورغم أن كثيراً من هذه الكتابات تعرض للتلف بسبب العوامل الجوية والإهمال، فإن ما تبقى منها يسمح بقراءة بعض العبارات وتحديد خصائصها الخطية.

وتتمثل أهم الكتابات المتبقية في شريط كتابي يحيط بالواجهة الرئيسية، يبدو أنه كان يتضمن آيات قرآنية أو عبارات دينية، إلى جانب ذكر اسم السلطان وألقابه. وقد نُفذت هذه الكتابات بخط كوفي هندسي مشتق من الخط الكوفي المربع، حيث تتحول الحروف إلى أشكال زوايا قائمة تتلاءم مع الشبكة الهندسية المحيطة. ويُعرف هذا النوع من الخط بالكوفي المعماري، وقد استُخدم على نطاق واسع في العمائر المغربية والأندلسية منذ العصر الموحد.

أما الخط الثلث، فيظهر في نطاقات أفقية أصغر، ويتميز بليونته وانسيابية حروفه مقارنة بالكوفي. ويُرجَّح أن هذه النطاقات كانت تتضمن نصوصاً قرآنية قصيرة أو أدعية، وهو ما يتناسب مع الوظيفة الدينية للمئذنة. وتكشف معانة ما تبقى من الحروف عن دقة عالية في التنفيذ، إذ روعيت فيها المسافات بين الحروف وامتلاء الفراغات بالحركات والزخارف النباتية الدقيقة. وتُعد هذه

الكتابات من أهم مصادر دراسة تاريخ المئذنة، إذ يمكن من خلال تحليل أساليبها الخطية ومضامينها تحديد تاريخ البناء والفترة التي أُنجرت فيها الزخارف.

الصورة 7: الشريط الكتاني المحيط بالعقد الذي يعلو المدخل الرئيسي للمئذنة.



المصدر: تصوير الباحثين.

4.3 مواد وتقنيات التنفيذ:

اعتمد بناء مئذنة مسجد المنصورة على مزيج من المواد المحلية والمستوردة، ووظفوا تقنيات متعددة لتحقيق التأثيرات الجمالية المطلوبة. وتُعد مادة الحجر هي المادة الأساسية في البناء، إذ استُخدمت في الكتلة الرئيسية للصومعة وفي تنفيذ الزخارف الهندسية البارزة والغائرة. وقد أتاحت هذه المادة للبنائين مرونة كبيرة في التشكيل، إذ يمكن قصّ الحجر بأحجام مختلفة وترتيبه بطرق متنوعة للحصول على تأثيرات هندسية معقدة دون الحاجة إلى مواد إضافية (Sidqi, 2018).

أما الجص، فقد استُخدم بكميات كبيرة في تغطية الجدران وتنفيذ الزخارف النباتية والكتائية الدقيقة. ويتميز الجص بسهولة تشكيله قبل جفافه، وبقدرته على الاحتفاظ بالتفاصيل الدقيقة، مما جعله المادة المفضلة للنقوش والأشرطة الزخرفية. ويُلاحظ أن الجص المستخدم في المئذنة ذو نوعية جيدة، إذ لا يزال محتفظاً بصلابته رغم مرور أكثر من سبعة قرون، وقد عولج بطبقات نهائية ناعمة سمحت بالحفر العميق دون تشقق.

ويُضاف إلى هاتين المادتين الزليج (الفسيفساء الخزفية)، الذي تظهر بقاياه في بعض الأفاريز العلوية وحول النوافذ. ويتكوّن الزليج من قطع صغيرة من الخزف المطلي بألوان متعددة، مثل الأزرق والأخضر والبني والأبيض، تُرصّ جنباً إلى جنب لتكوين زخارف هندسية أو نباتية. وقد انتشرت هذه التقنية في المغرب والأندلس منذ العصر الموحيدي، وبلغت أوجها في العصر المريني، حيث استُخدمت في تزيين المآذن والمدارس والقصور. وفي هذه المئذنة، يبدو أن الزليج كان يُستخدم في تأطير النوافذ وإبراز الخطوط الأفقية، لكن معظمه سقط بسبب تآكل الملاط وتعرضه للعوامل الجوية (Bourouiba, 1973, p. 148).

أما الخشب، فيُرجَّح أنه استُخدم في صنع الأبواب والشرفات والسقوف، لكن لم يبق منه شيء يُذكر. وتشير بعض المصادر التاريخية إلى أن أبواب المساجد والمآذن المرينية كانت تُصنع من خشب الأرز وتُزين بالنقوش والتطعيم، ومن المحتمل أن تكون صومعة المنصورة قد حظيت بباب خشبي منخرف مماثل.

4. التحليل الفني المقارن:

بعد وصف العناصر الزخرفية في مئذنة مسجد المنصورة، ننتقل إلى تحليل هذه العناصر من حيث الخصائص الأسلوبية، ومقارنتها بنظيراتها في العمائر، وإبراز دالاتها الرمزية.

1.4 الخصائص الأسلوبية والتأثيرات الفنية:

تندرج زخارف مئذنة المنصورة ضمن المدرسة الفنية المرينية التي ازدهرت في المغرب الأقصى خلال القرنين السابع والثامن الهجريين. وقد ورثت هذه المدرسة التقاليد الموحدية في العمارة والزخرفة، لكنها أضافت إليها لمسات أندلسية غرناطية واضحة، وأدخلت تحسينات تقنية وجمالية ملموسة. ومن أهم الخصائص الأسلوبية التي تميز زخارف المئذنة:

- **كثافة الزخرفة وتغطية المساحات الواسعة:** إذ نجد أن الواجهات العلوية للمئذنة تكاد تكون مغطاة بالكامل بشبكات هندسية وأشربة نباتية، دون ترك مساحات فارغة كبيرة. وهذا الميل إلى الكثافة الزخرفية يُعد سمة بارزة في العمارة المرينية، خاصة في المدارس والمساجد التي بُنيت في فاس وسلا ومكناس خلال القرن الثامن الهجري.
- **الجمع بين الزخرفة الهندسية والنباتية:** إذ لم يقتصر الفنانون على نوع واحد من الزخرفة، بل جمعوا بين الشبكات الهندسية والأشربة النباتية في تكوين متوازن. وقد استُخدمت الزخارف الهندسية لملء المساحات الكبيرة، بينما استُخدمت الزخارف النباتية لتأطير النوافذ والعقود وإبراز الخطوط الأفقية والرأسية.
- **الاهتمام بالتأثيرات الضوئية:** من خلال تقنية الآجر البارز والغائر، والحفر العميق على الجص، استطاع الفنانون خلق تلاعب بالظل والنور يمنح الواجهات حيوية ويبرز التفاصيل الزخرفية حتى من مسافات بعيدة. وهذا الاهتمام بالضوء يعكس فهماً عميقاً للعلاقة بين العمارة والمناخ، إذ تعمل الزخارف البارزة والغائرة على تخفيف حدة أشعة الشمس وتوفير ظلال باردة.
- **الطابع التجريدي:** رغم وجود عناصر نباتية مستوحاة من الطبيعة، فإن المعالجة الفنية لهذه العناصر تتسم بالتجريد والتبسيط، إذ تحوَّلت الأوراق والفروع إلى أشكال شبه هندسية تتكرر بإيقاع منتظم. ويعكس هذا الطابع التجريدي الرؤية الإسلامية التي تتجنب المحاكاة الحرفية للطبيعة وتميل إلى الرمز والإيجاء.

أما من حيث التأثيرات، فيُمكن القول إن زخارف مئذنة مسجد المنصورة تجمع بين تأثيرين رئيسيين: الأول موحد مغربي، يتمثل في استخدام النجوم الثمانية وشبكات المعينات وتقنية الآجر البارز والغائر، وهو إرث مباشر من عمارة الموحدين في المغرب والأندلس. والثاني أندلسي غرناطي، يظهر في الأشربة النباتية المنحوتة بعمق، وفي استخدام المقرنصات الصغيرة، وفي بعض أشكال الخط الكوفي المعماري. وقد كان هذا المزيج ممكناً بفضل تنقل الصنّاع بين الحواضر، وبفضل العلاقات السياسية والثقافية الوثيقة بين الدولة المرينية ومملكة غرناطة التي كانت تعتمد على الدعم العسكري والمادي المريني (الوزان، 1983، الصفحات 310-312).

2.4 الرمزية والدلالة:

لا تقتصر زخارف هذه المئذنة على وظيفتها الجمالية، بل تحمل دلالات رمزية متعددة. ففي البعد الديني، تُعد الزخارف الهندسية المتكررة، وخاصة النجوم الثمانية، رمزاً للوحدة واللا نهاية، إذ تعكس فكرة التوحيد التي هي جوهر العقيدة الإسلامية. فالنجم الثماني يتكوّن من مربعين متداخلين، وهو ما يرمز إلى تلاقي السماوي والأرضي، أو إلى الكمال والانتظام الكوني. كما أن تكرار هذه النجوم بشكل لا نهائي يوحي بالاستمرارية وعدم الانقطاع، في إشارة إلى أبدية الخالق وثبات الدين.

أما الكتابات القرآنية، فتُبرز البعد الديني، إذ تُظهر أن الدولة تستمد شرعيتها من القرآن، وأنها حارسة للدين وقيمه. وقد كان اختيار الآيات القرآنية في العماير العامة يُخضع لاعتبارات دعائية، إذ تُختار آيات تتحدث عن النصر والتمكين والطاعة، بما يتوافق مع أهداف الدولة السياسية.

وفي البعد السياسي، تُعد الزخارف الفاخرة في مدينة عسكرية مؤقتة رسالة واضحة إلى الخصوم الزيانيين وإلى السكان المحليين، مفادها أن الدولة المرينية قادرة على الصمود والتوسع، وأنها تملك الموارد والكفاءات لبناء عاصمة بديلة. وقد حرص المرينيون على أن تكون المنصورة مدينة كاملة المرافق، لا مجرد معسكر، وهو ما يدل على طموحهم في تحويلها إلى عاصمة دائمة في حال نجاح الحصار. ومن هذا المنطلق، كانت الزخارف جزءاً من استراتيجية إعلامية تهدف إلى بث الرهبة في نفوس الخصوم وإظهار التفوق الحضاري.

وفي البعد الجمالي، تعكس زخارف المنصورة ذوقاً رفيعاً وتقديراً للفن والجمال، وهو ما يتناقض ظاهرياً مع الطابع العسكري للمدينة. لكن هذا الجمع بين الحرب والجمال ليس غريباً في التاريخ الإسلامي، إذ كثيراً ما أقامت الدول المتحاربة عمائر فخمة لإظهار قوتها وثباتها. وقد نجح الفنانون في المنصورة في تحقيق توازن بين الضخامة والدقة، وبين البساطة البنائية والتعقيد الزخرفي، مما جعل الصومعة تحفة فنية لا تزال تثير الإعجاب رغم مرور القرون.

4. خاتمة:

تُعد مئذنة المنصورة بتلمسان شاهداً فريداً على التفاعل الحضاري بين المغرب الأقصى والمغرب الأوسط والأندلس خلال العصر المريني. وقد أظهرت هذه الدراسة أن زخارف المئذنة تنوع بين عناصر هندسية ونباتية وكتائية، نُفذت بمواد وتقنيات متعددة، وتميزت بكتافتها ودقتها وجمالها. كما بيّنت أن هذه الزخارف تجمع بين الإرث الموحي، المتمثل في النجوم الثمانية وشبكات المعينات والآخر البارز والغائر، والتأثير الأندلسي الغرناطي، الظاهر في الأشرطة النباتية المنحوتة والمقرنصات والخط الكوفي المعماري.

وفي ضوء هذه النتائج، توصي الدراسة بضرورة تكثيف جهود الترميم والتوثيق الرقمي لمئذنة المنصورة، وإجراء دراسات أثرية أعمق حول النقوش الكتابية المتبقية، وضرورة إجراء صيانة ومراقبة دورية نظراً لخصوصية الجزء المتبقي منها والذي يجعلها دائماً عرضة للسقوط.

5. قائمة المراجع:

- Bourouiba, R. (1973). *L'art religieux musulman en Algérie*. Alger: SNED.
- Golvin, L. (1970). *Essai sur l'architecture religieuse musulmane*. Paris: Klincksieck.
- Marçais, G. (1954). *L'architecture musulmane d'Occident: Tunisie, Algérie, Maroc, Espagne et Sicile*. Paris: Arts et Métiers Graphiques.
- Sidqi, A. (2018). *The Zellij of the Mansourah Minaret in Tlemcen: A Technical Study*. *Journal of Islamic Archaeology*, 5(2), 210-225.
- الحسن الوزان. (1983). وصف إفريقيا (المجلد 2). (محمد حجي، و محمد الأخضر، المترجمون) بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- الرزقي شرقي. (2013). المعالم التاريخية والمواقع الأثرية بمدينة تلمسان في عدسات مصوري القرن 19م. تلمسان: ابن خلدون.
- صالح بن قربة. (1986). المئذنة المغربية الأندلسية في العصور الوسطى. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
- عبد الرحمن ابن خلدون. (2000). ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر (المجلد 7). بيروت: دار الفكر.
- عبد العزيز محمود لعرج. (2006). مدينة المنصورة المربنية بتلمسان (دراسة تاريخية أثرية في عمارتها وفنونها) (الإصدار 1). القاهرة: زهراء الشرق.